مقتطفات من كتاب
رواية 1984
جورج أورويل



كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com



تعتبر رواية 1984 إحدى كلاسيكيات الأدب في العالم، ولا تكاد تخلو لغة من أكثر من ترجمة لها، فقد قدّمت هذه الرواية صورة المجتمع الشمولي الذي يحكمه الحزب الواحد بطريقة مبدعة، على مستوى الأدب كما على مستوى الفكر.

الأخ الأكبر، دقيقتي الكراهية، أسبوع الكراهية، شرطة الفكر، التفكير المزدوج، رابطة الجواسيس، شعارات الحزب الثلاثة: الحرب هي السلم- الحريّة هي العبودية- الجهل هو القوّة... تلك هي مفردات هذا المجتمع الذي يُحكم بالقهر والتعذيب وتزوير الوقائع والتاريخ، ما يحوّل المجتمع الى قطيع يسوقه إلى الأعمال الشاقّة والحياة البائسة، والحروب والسجون، مجموعة من أعضاء الحزب الذين بدورهم يخضعون لرقابة تحصي عليهم أنفاسهم وتحوّلهم، باسم الدفاع عن الوطن وعن الحزب القائد، الى أشخاص يخضعون لتراتبية قائمة على الخوف. فحتى الأهل يخافون من أولادهم الذين تحوّلهم التربية التي يشرف عليها الحزب، إلى جواسيس. وأعضاء الحزب يتصرّفون بكل خضوع بعد أن عرفوا مصير كل متمرّد.

لكن في داخل آلة القمع الرهيبة هذه، تستمر التمرّدات. إنها التمرّدات التي تميّز الروح الانسانية التي ترى في الحريّة أسمى قِيَم الانسان. وترى أن الحب أجمل وأعظم من الكراهية، وأن فرادة الانسان هي ما يطلق فيه الابداع.

رواية تُقرأ مرة تلو مرّة لإبداعها الأدبي، وتصويرها القويّ لبشاعة المجتمع الذي يفتقد للحريّة.

وكان على المرء أن يعيش، بل كان يعيش فعلاً، وفق العادة التي أضحت غريزةً، مفترضاً أنهم يسمعون كل صوت يُصدِرُه ويراقبون كل حركة يأتي بها، إلا في الظلام.

ذبابة ضخمة، ثم اندفعت بعيداً من جديد محلّقةً في مسارٍ منحنٍ. كانت تلك دوريةً من دوريات الشرطة. تتلصص عبر النوافذ على الناس. لكنها ما كانت شيئاً يشغل البال! فلا رهبة إلا من شرطة الفكر!

مقرات الوزارات الأربع التي يتشكل منها جهاز الدولة كله. وزارة الحقيقة التي تعنى بالأنباء والترفيه والتعليم والفنون الجميلة. ووزارة السِّلم المختصّة بالحرب، ووزارة الحُبّ التي ترعى القانون والنظام. ووزارة الوفرة المسؤولة عن الشؤون الاقتصادية. وأما أسماء هذه الوزارات في اللغة الجديدة فهي: (وزاحق، وزاسلم، وزاحب، وزافرة)

كانت وزارة الحقيقة ـ «وزاحق» بحسب اللغة الجديدة ـ مختلفة اختلافا صادما عمّا حولها ضمن مرمى النظر. إنها هيكل هرمي ضخم من الإسمنت الأبيض المتلألئ يعلو مرتفعاً، طبقة بعد أخرى، حتى يبلغ ثلاثمئة مترٍ في الجو. ومن حيث يقف ونستون، كان يمكن أن يقرأ المرء شعارات الحزب الثلاثة مكتوبة على صفحة المبنى البيضاء بأحرف بارزة:

الحرب هي السِّلم
الحرية هي العبودية
الجهل هو القوة

لمن عساه يكتب هذه المذكرات؟ خطر هذا السؤال في باله على نحو مفاجئ! من أجل المستقبل، من أجل الذين لم يولدوا بعد! شَرَد ذهنه لحظة في التاريخ غير المؤكد الذي وضعه على الصفحة، ثم خطرت في باله على نحو مفاجئ، مثل صدمة، تلك الكلمة المستخدمة في اللغة الجديدة ... «التفكير المزدوج». وللمرة الأولى، أدرك حجم ما هو مقبل عليه. كيف لك أن تتواصل مع المستقبل؟ إنه أمر مستحيل في حدّ ذاته! فإما أن يكون المستقبل شبيه الحاضر، وهو لن يصغي إليه في تلك الحالة؛ أو أن يكون مختلفاً عنه فتصبح هذه المَشقّة عديمة المعنى.

ولا وجود لمحاضر الاعتقال. يختفي الناس بكل بساطة، خلال الليل دائماً. يُحذف اسمك من السجلات... كل سجلٍّ فيه شيء قمتُ به يُحذَف ويُزال. تُلغى حقيقة أنك وجدت في يومٍ من الأيام، ثم تُنسى. يُزال الشخص تماماً، يصبح عدماً: وكانت الكلمة المألوفة لوصف ذلك «يتبخّر»!

لكنه لم يفعل ذلك لمعرفته بأنه لا جدوى من تمزيقها. فلا فرق... سواء كتب «يسقط الأخ الأكبر» أو امتنع عن كتابتها. وسواء تابع كتابة هذه المذكرات أو لم يتابعها، فلا فرق أيضاً. سوف تمسك به شرطة الفكر في الحالتين. لقد ارتكب الجريمة الكبرى التي تحتوي في ذاتها على الجرائم الأخرى كلّها... وهو يظل مرتكباً لهذه الجريمة حتى لو لم يخطّ بقلمه شيئاً على الورق! إنهم يسمّونها «جريمة الفكر». وجرائم الفكر ليست شيئاً يمكن إخفاؤه إلى الأبد. قد ينجح المرء في التلطّي والاختفاء حيناً من الزمن، بل حتى عدة سنوات، لكنهم سوف يمسكون به عاجلاً أو آجلاً.

عاد إلى الطاولة. وغمس ريشته في الحبر. وكتب:

إلى المستقبل أو إلى الماضي... إلى زمنٍ يكون فيه الفكر حراً، عندما يكون البشر مختلفين أحدهم عن الآخر ولا يعيشون وحيدين... إلى زمنٍ توجد فيه الحقيقة ولا يمكن محو ما جرى.

من زمن التماثل، من زمن لا يختلف فيه الواحد عن الآخر، من زمن الأخ الأكبر، من زمن التفكير المزدوج... تحياتي!

يُعتقد بأنهم مجرمون. وكان أمراً شبه عادي أن يخاف الأشخاص الذين تجاوزوا الثلاثين من أطفالهم. ولهذا سببٌ وجيهٌ حقاً لأنه لا يكاد يمر أسبوع واحد من غير أن تنشر صحيفة التايمز مقطعاً يصف كيف سَمِعَ طفلٌ متلصّصٌ متنصِّت... كانوا يسمّونه عادةً «الطفل البطل»... عبارةً خطيرة فوشى بوالديه إلى شرطة الفكر

تصبح تاريخاً، وتصبح حقيقة! يقول شعار الحزب: «من يتحكّم بالماضي يتحكّم بالمستقبل: ومن يتحكّم بالحاضر يتحكّم بالماضي». ورغم هذا، فإن الماضي... على الرغم من طبيعته القابلة للتغيير..

ضمن الممرات! ولسببٍ من الأسباب، كانت هذه الفتحات تدعى باسم «ثُقوب الذاكرة». وعندما يعرف أي شخص أن ثمة وثيقة يجب إتلافها، أو حتى عندما يرى أحدٌ ما قصاصة ورقٍ في أي مكان، كان بردّة فعل تلقائية يلتقط تلك الورقة ويسقطها في أقرب حفرة من ثُقوب الذاكرة حيث يحملها تيارٌ دافئٌ من الهواء إلى الأفران العملاقة الخبيئة في مكانٍ ما في جوف هذا البناء.

في حين يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى تدميره؟ سوف يتغيّر الجو الفكري كلّه! والحقيقة هي أنه لن يكون ثمة «تفكير» على النحو الذي نعرفه الآن! إن الولاء يعني انعدام التفكير، بل يعني انعدام الحاجة إلى التفكير أيضاً. الولاء هو عدم الوعي!».

ولم تكن انفلات المعاشرة الجنسية ليلقى أي عقاب. بل إن الحزب كان ليسمح بممارسة الطقوس الدينية أيضاً لو أن العامة أظهروا أي إشارةٍ إلى رغبتهم فيها أو حاجتهم إليها. لقد كانوا أدنى من أن يطالهم الشك! وكان واحد من شعارات الحزب يقول: «العامة والحيوانات أحرار».



أضاف بعد شيء من التفكير: «إن تدمير الكلمات أمرٌ جميل! وطبيعي أن تكون نسبة التدمير أكبر في الأفعال والصفات. إلا أن ثمة أسماء كثيرة يمكن التخلّص منها أيضاً، فضلاً عن الأضداد والمترادفات! ما مبرر وجود كلمة لا تعدو أن تكون نقيضاً لكلمة أخرى؟ ألا تحمل كل كلمةٍ نقيضها في ذاتها؟ فلنأخذ كلمة «جيد» على سبيل المثال. إذا كانت لدينا هذه الكلمة، فما حاجتنا إلى كلمة «سيئ»؟ إن «غير جيد» تفي بالمعنى تماماً. بل لعلّها أفضل لأنها تحمل المعنى المضاد بالضبط، بينما لا تحمله الكلمة الأخرى على نحو مكتمل إلى هذا الحد. وإذا أردنا تعبيراً أقوى من كلمة «جيد»، فما فائدةَ أن تكون لدينا هذه المتوالية كلها من كلماتٍ غامضة لا نفع فيها من قبيل «ممتاز» و«رائع»، وهكذا دواليك؟ ألا تفي كلمة «جيد جداً» بالمراد؟ أو يمكن أن تكون «جيد جداً جداً» إذا أردنا معنى أقوى! نحن نستخدم هذه الصيغ بالتأكيد. وأما في الطبعة النهائية من قاموس اللغة الجديدة، فلن تكون موجودة أبداً. سوف يكون فهمنا للجودة والسوء محكوماً تماماً بست كلمات فحسب في نهاية الأمر... بل بكلمة واحدة في واقع الأمر! ألا ترى هذا رائعاً يا ونستون؟ إنها فكرةٌ من أفكار الأخ الأكبر في الأصل».

كتب ونستون:

«لن يثوروا إذا لم يعوا! وهم لن يعوا، حتى إذا ثاروا».

فكر ونستون في أن هذا يكاد يكون مقتطفاً مأخوذاً من أحد كتب الحزب! كان الحزب يزعم، بطبيعة الحال، أنه قد حرّر عامة الناس من العبودية. فقد كانوا واقعين تحت اضطهاد الرأسماليين الشنيع قبل الثورة. كانوا يجوعون ويُجلَدون

صرخ أوبراين: «لا!». كان صوته قد تغير تغيّراً شديداً، وصار وجهه صارماً مهتاجاً على نحو مفاجئ... «لا! ليس حتى ننتزع الاعترافات منك فقط، وليس حتى نعاقبك فقط! هل علي أن أخبرك عن سبب مجيئنا بك إلى هنا؟ حتى نشفيك! حتى نجعلك عاقلاً! هل تستطيع أن تفهم يا ونستون أن أحداً ممن نأتي بهم إلى هنا لا يخرج من بين أيدينا إلا بعد أن يشفى؟ لسنا مهتمين بتلك الجرائم الغبية التي ارتكبتها! ليس الحزب مهتماً بالأفعال المباشرة: نحن لا نهتم إلا بالأفكار. إننا لا نكتفي بتدمير أعدائنا. إننا نغيرهم! أتفهم ما أعنيه بهذا؟».

لقد كانت، في بعض النواحي، أكثر ذكاءً من ونستون بكثير، وأقل تأثراً بدعاية الحزب أيضاً! وعندما تصادف مرة أن جاء ذكر الحرب ضد أوراسيا، فاجأته تماماً عندما قالت عرَضاً إنها تظن الحرب غير قائمة أصلاً! وأما القذائف الصاروخية التي تسقط على لندن كل يوم، فمن المرجَّح أن حكومة أوقيانيا هي التي تطلقها بنفسها «حتى يظل الناس خائفين فحسب»! كانت تلك فكرة لم تخطر في باله أبداً.



كتب ونستون: «إن كان ثمة أمل، فهو كامنٌ في عامة الناس».

إن كان ثمة أملٌ، فلا بد أن يكون كامناً في عامة الناس، لأن القوة التي يمكن أن تحطّم الحزب لا يمكن أن تتولد إلا في هذه الكتل البشرية المحتَقَرة التي تعادل خمسة وثمانين بالمئة من سكان أوقيانيا. لا سبيل إلى الإطاحة بالحزب من داخله. ولا سبيل إلى أن يتجمع أعداؤه، إنْ كان له أعداء أصلاً، ولا حتى إلى أن يعرف أحدهم الآخر. وحتى لو كانت تلك الأخوية الأسطورية موجودةً، بل لعلها موجودةٌ فعلاً، فمن غير الممكن تصوّر أن يستطيع أكثر من اثنين أو ثلاثة من أفرادها أن يجتمعوا معاً. كان التمرّد يعني نظرةً في العينين، أو تغيراً في نبرة الصوت، في أقصى الأحوال... كلمةً مهموسةً على نحوٍ عارض! أما عامة الناس، إذا استطاعوا أن يدركوا قوتهم على نحوٍ ما... فلا حاجة بهم إلى التآمر. ليس عليهم إلا أن ينهضوا فيهزوا أنفسهم مثلما يهز حصانٌ جسمه ليطرد الحشرات عنه. يمكنهم، إن أرادوا، أن يحيلوا الحزب حطاماً منذ صباح الغد! لا بد أن يخطر فعل ذلك في بالهم، عاجلاً أو آجلاً! ولكن...!

يقول لك الحزب أن تنكر الدليل الذي تقدمه لك عيناك وأذناك. كان هذا هو الأمر النهائي الأكثر أهميةً الصادر عن الحزب. غار قلبه في صدره عندما فكّر في القوة الهائلة الواقفة أمامه... عندما فكر في سهولة أن يهزمه في الجدال أي مثقف من مثقفي الحزب... في تلك الحجج الماكرة التي لن يكون قادراً على فهمها، ناهيك عن الإجابة عليها! لكنه كان محقاً رغم هذا! هم مخطئون وهو محق. لا بد من الدفاع عما هو واضح وسخيف وحقيقي. البديهيات حقيقة... تمسَّك بهذا! إن العالم المحسوس موجود... وقوانينه لا تتغير. الأحجار صلبة، والماء رطب، والأجسام التي لا يحملها شيء تسقط في اتجاه مركز الأرض. كتب ونستون شاعراً كما لو أنه يخاطب أوبراين، وأيضاً كما لو أنه يقرر حقيقةً مهمة:

«الحرية هي حرية أن تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة. إذا كانت هذه الحرية مضمونة، فكل شيء آخر يأتي من تلقاء نفسه».

اختفى سايم! لم يأت إلى عمله في صباح أحد الأيام: علّق نفرٌ من الأشخاص الطائشين على غيابه. وفي اليوم التالي، لم يذكره أحد. أما في اليوم الثالث، فذهب ونستون إلى ردهة قسم السجلات لينظر إلى لوحة الإعلانات. كان على اللوحة قائمة مطبوعة بأسماء أعضاء لجنة الشطرنج الذين كان سايم واحداً منهم. بدت القائمة مثلما كانت من قبل... ليس فيها اسم مشطوب... لكنها كانت أقصر بمقدار اسم واحد. كان هذا كافياً. لقد كف سايم عن الوجود. بل هو لم يوجد على الإطلاق!

